

البطالة

- * الهدف تحقيق العمالة الكاملة
- * مسئولية الدولة عن العمل
- * العمل في العالم الاسلامى

الهدف تحقيق العمالة الكاملة

يقول اللورد « جون مينارد كينز » في كتابه « النظرية العامة للعمالة والفائدة والنقود » : « •• ان هدف كل نظام اقتصادى هو تحقيق العمالة الكاملة ويذكر أن من ضمن الوسائل – التى تعين على تحقيق هذا الهدف – تخفيض سعر الفائدة على النقود الى أن يصل الى صفر لأن سعر الفائدة عامل معوق للتقدم بما يضعه من قيود ثقيلة على رغبة صاحب العمل فى التوسع وزيادة رأس المال المستثمر » •
وما يقوله اللورد كينز قرره الاسلام منذ أربعة عشر قرنا عندما حرم الربا بأنواعه ولم يسمح بأى نسبة منه « فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » (١) ••

لكن غاب عن لورد كينز طيبب الرأسمالية فى القرن العشرين شمول الاسلام لنظم الحياة فلم يعرف العلاج الاسلامى الفعال أو الشق الآخر من العلاج والذي تعترف به النظريات الاقتصادية الحديثة ضمنا عندما تقرر أن السوق المحلية هى أضمن الأسواق ويجب أن تكون أيضا أوسع الأسواق ••

ويعمل الاسلام على تحقيق سعة السوق المحلية بتوسيع قاعدة الاستهلاك عن طريق :

١ – الزكاة وهى ركن من أركان الاسلام أوجب على الغنى أن يدفعها وأوجب على الدولة أن تخصص لها ميزانية منفصلة عن ميزانية الدولة العامة كما أوجب أن تصرف فى مصارفها المحددة وأولها الفقير والمسكين ليكونوا قوة شرائية متزايدة فى السوق •

٢ – نظام المواريث الذى يفتت الثروات ويزيد فى عدد الملاك وبذلك يرتفع مستوى الدخل عند أعداد متزايدة من أفراد الأمة •
وكلما اتسع نطاق السوق المحلية بزيادة الاستهلاك كلما نشط المنتجون من زراع وصناع لتوسيع أعمالهم وزيادة انتاجهم مما يزيد قرص العمل المتاحة للناس •

(١) البقرة : ٢٧٩

والاسلام لا يكتفى بهذا بل انه يحارب كثر المال ويعمد على أن يدفع بكل مليم الى ميدان الانتاج وما الزكاة والصدقات الا حافظ لرؤوس الأموال على الخروج الى ميادين العمل المختلفة حتى لا تأكلها الصدقة •• وان ولى اليتيم مطالب في الاسلام أيضا بأن ينمى مال اليتيم •• ولا يتركه كنزا معطلا •• لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « اتجروا في مال اليتيم حتى لا تأكده الصدقة » ••

بل ان الاسلام لينذر صاحب الكنز بأشد العذاب يوم القيامة لأن الله ما استخلفه في مال الله الا ليخدم به الخلق عيال الله فيعز أمة الله في الأرض •• يقول الحق تبارك وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم • يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فخذوا ما كنتم تكنزون » (١) •

ويقول سبحانه :

« كلا انها لظى • نزاعة للشوى • تدعوا من أدبر وتولى • وجمع تقاوعى » (٢)

ويقول الامام القرطبي تعليقا على رأى أبى ذر الغفارى رضى الله عنه الذى ذهب الى أن الكنز هو كل ما فضل عن حاجة الانسان وضروراته : « وهو من شدائده - أى أبى ذر - وما انفرد به رضى الله عنه • فلت ويحتمل أن يكون مجمل ما روى عن أبى ذر في هذا ما روى أن الآية نزلت في وقت شدة الحاجة وضعف المهاجرين وقصر يد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كفايتهم ولم يكن في بيت المال ما يشبعهم وكانت السفون جوائح هاجمة عليهم فنهوا عن امساك شئ من المال الا بقدر الحاجة • ولا يجوز ادخار الذهب والفضة في مثل ذلك الوقت •

فلما فتح الله على المسلمين ووسع عليهم أوجب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مائتي درهم خدسة دراهم ، وفي عشرين دينارا نصف دينار ، ولم يوجب الكل واعتبر مدة الاستتاء فكان ذلك منه بيانا صلى الله عليه وسلم .

وقرر الشرع ضبط المال وأداء حقه . ولو كان ضبط المال ممنوعا لكان حقه أن يخرج كله وليس في الأمة من يلزم هذا وحسبك حال الصحابة وأمواهم رضوان الله عليهم .

قلت هذا الذى يليق بأبى ذر رضى الله عنه أن يقول به : وأن ما فضل عن الحاجة ليس بكنز اذا كان معدا في سبيل الله » .

ونعتقد أن هذا هو مقصود الاسلام وكما قلنا ان المفهوم هو اخراج المال من مخابئه ليعمل في سبيل الله بفتح أبواب الرزق لخلق الله .

ولابن خلدون^(١) رأى قيم في مفهوم الكنز بالنسبة للدولة وما يجب عليها في فوائض أموالها .. يقول :

« .. فاذا احتجن السلطان الأموال أو الجبايات أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها قل حينئذ ما بأيدي الحائسية والحامية وانقطع أيضا ما كان يصل منهم لحائسياتهم وذويهم وقلت نفقاتهم جملة وهم معظم السواد ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق مما سواهم فيقع الكساد حينئذ في الأسواق وتقل الأرباح في المتاجر فينقل الخراج لذلك ، لأن الخراج والجباية انما يكون من الاعتماد والمعاملات ونفاق — رواج — الأسواق وطلب الناس للنوائذ والأرباح ، ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقله أموال السلطان حينئذ بقلة الخراج .. »

فان الدولة كما قلنا هي السوق الأعظم أم الأسواق كلها وأصلها ومادتها في الدخل والخراج فان كسدت وقلت بمصاريفها فأجدر بما بعدها من الأسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه .

(١) فيلسوف اسلامى عظيم سبق عصره ووضع أسس الكثير من العلوم الانسانية التى نطن خطأ أن للغرب سبق فيها كعلوم الاجتماع والاقتصاد والسكان .

٣ - عائد توظيف النقود في القروض في الاقتصاد الاسلامي..
يساوى صفرا وهو نفس عائد الاحتفاظ بالنقود في سيولة كاملة مائة
في المائة .

٤ - عائد استثمار النقود بتزاجها مع عنصر أو أكثر من عناصر
الانتاج قد يكون ربحا أو خسارة وليس ثمنا في جميع الأحوال .

٥ - الحافز على الاستثمار في الفكر الاسلامي هو التنمية فان..
زكاة النقود تكاد تأكلها فلا يكون اخراج الزكاة من رأس المال بل من..
الربح . والادخار اعداد لسبيل الله والاستثمار انفاق في سبيل الله..
أما الاكتناز وحبس النقود فهو صد عن سبيل الله وفي الحديث الشريف :
« ثمروا أموالكم فان الزكاة تكاد تأكلها » (١) .

بينما في ظل النظام الرأسمالي يعمل أصحاب الأعمال على تكديس..
فائض القيمة كاحتياطي لضمان رأس المال الثابت ثم يلجأون الى..
استخدام هذا الاحتياطي في قروض قصيرة الأجل بفوائد ربوية .
وهما عيبان خطيران في هذا النظام يحدان من فرص العمل وبالتالي..
زيادة الحاجة والفقر والبطالة .

وما يؤدي الى زيادة الحاجة والفقر والى زيادة البطالة يحرمه-
الاسلام ويمنعه ويجب على المسلمين أن يجتنبوه ايمانا بقول الرسول-
صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » .

وكفالة بيت المال في النظام الاسلامي ليست في كون هذا البيت-
برعى شؤون الزكاة والخراج وما اليها مما يجمع أو يصل اليه من أموال..
المسلمين ولكن مع ذلك وقبل ذلك في أن يتيح فرض العمل ويمنع
العوائق التي تحول دون أن تتاح لجميع الأفراد ولذا يسقط حد السرقة
إذا لم يقيم بيت المال باقاحة فرصة العمل للمسارق أو إذا لم يرعه-
بما يسد حاجته وعوزه في حياته اليومية .

لأن الأصل في المسلم أن يعمل ويكتسب والاسلام يعتبر العمل-
عنصرا أساسيا من عناصر الانتاج ويجعل العمل ضربا من العبادة وكل

(١) المرجع السابق ص ٦٠ ، ٦١

وأيضاً فالمال متردد بين الرعية والسلطان منهم اليه ومنه اليهم
فماذا حبسته السلطان عنده فقدته الرعية سنة الله في عبادة» ••

وقد أورد ابن خلدون نص الكتاب المشهور الذي كتبه طاهر
ابن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر
وما بينهما •• عهد اليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج اليه في دولته
وسلطانه ومما كتبه في هذا الكتاب وما نحن بصده:

« •• واعلم أن الأموال اذا كُنزت وادخرت في الخزائن لا تنمو
•• واذا كانت في صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف الأذى عنهم نمت
وزكيت وصلحت به العامة وبرحت به الولاية وطاب به الزمان واعتقد
فيه العز والمنفعة ••

فليكن كنز خزانتك تفريق الأموال في عمارة الاسلام وأهله • وفر
منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم
•• وعود ما يصلح أمورهم ومعايشهم فانك ان فعلت قوت النعمة لك
•• واستوجب المزيد من الله تعالى وكننت بذلك على جباية أموال رعيته
•• وخارجك أقدر وكان الجميع لما شملهم من عدلك واحسانك أساس
لطاعتك» (١) •

ويترجم هذا الكلام الدكتور شوقي اسماعيل شحاتة الى لغة
الاقتصاد الحديث في قوله عن العلاقة التي تحكم عرض النقود والطلب
عليها في غيبة نظام سعر الفائدة ووفقاً للمبادئ الاسلامية: « ان هذه
العلاقة تحكمها:

١ - حتمية تزواج النقود مع عنصر أو أكثر من عناصر الانتاج
لكي يكون لها نماء بالفعل وأن عائد الاستثمار يتحدد وفقاً لمبدأ العنم
•• وبالغرم ••

٢ - الاحتفاظ بالنقود يشكل تكلفة قدرها $\frac{1}{2}$ سنوياً كزكاة
نقود على الأرصدة النقدية المملوكة لصاحبها متى بلغت نصيباً وحل
عليها الجول •

(١) ضاهيم ومبادئ في الاقتصاد الاسلامي لشوقي اسماعيل شحاتة

ص ٣٩

مِسْئُولِيَةُ الدَّوْلَةِ عَنِ الْعَمَلِ

وتتضح وجهة نظر الاسلام في حق العامل المتعطل على الدولة مما رواه البخارى من « أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب صدقة فأمره النبي بالانتظار ثم دعا بقدم ودعا بيد من خشب سواها بنفسه ووضعها فيها ثم دفعها للرجل وأمره أن يذهب الى مكان معين ليحتطب ويكسب قوته وقوت عياله وطلب اليه الرسول أن يعود اليه بعد أيام ليخبره بحاله .. » وقد أفلح الرجل في تحسين حاله ..

والرسول صلى الله عليه وسلم ما كان ينطق عن الهوى وكانت أعماله تشريعا لهذه الأمة وهدية هو ما أمرنا باتباعه لأن الله تعالى يقول :

« وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله » (١) ..

ويقول جل شأنه : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٢) ..

فيكون في هذه الرواية عنه صلى الله عليه وسلم تشريع خطير للعمل يتفق مع مسؤولية الدولة ومسئولية الفرد التي يقرها قول الرسول عليه السلام : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » ..

ونخرج من هذه الحادثة بالمبادئ الآتية :

الأول : أن المتعطلين كانوا يرون لهم حقوقا على الدولة فيذهبون الى ولى الأمر باسم هذه الحقوق ليدير لهم أمرهم بما يراه .

الثانى : أن الدولة تقر المتعطلين على هذه الحقوق وتعترف بها ولا تتكرها عليهم بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استمع الى شكاية الرجل ولم ينهره وأقره على حضوره ولم يطرده .

الثالث : أن الدولة لا تكتفى فقط بالأعتراف بحقوق المتعطلين بل تدبر لهم العمل فورا ولا تتركهم الى التسويف والمماطلة .. فقد رأينا الرسول عليه السلام لم يأمر الرجل بالانصراف الا بعد أن دبر له العمل والمكان الذى يعمل فيه وهذا أقصى ما تطمح اليه أنظار العمال في العالم .

(١) الفساء : ٦٤ . (٢) الجثر : ٧ .

انسان مرتين يعمله ولذلك لا تحلو الزكاة للقوى القادرة على الاكتساب
الا أن يكون كما يقول أبو عبيد : « محدودا عن الرزق محارفاً (١) وهو
في ذلك مجتهد في السعى على عياله حتى يعجزه الطلب فاذا كانت هذمه
حاله فان له حينئذ حقاً في أموال المسلمين لقول الله تبارك وتعالى :
« والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (٢) .

أو بعبارة أخرى وبلغة العصر يعاني من البطالة الاجبارية وقد نوهنا
بذلك حتى لا يتبادر الى بعض الأذهان خطأ أن مصارف الزكاة للفقراء
والمساكين تقضى على حافظ العمل أو تضعفه .

* * *

(١) المحارف : من لا يصيب خيراً من وجه يتوجه له .

(٢) المعارج : ٢٤ ، ٢٥ .

حتى لا تسد في وجه الطالب أبواب الرزق اذا لم يسعفه الحظ باتمام
مراحل التعليم العالى وحتى نزرع من نفوس الشباب الاستعلاء على
مثل هذه الأعمال وان لنا دائما في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة
الحسنة فهو عليه السلام لم يستتكف من العمل كما عمل أصحابه ولو
في جمع الحطب أو حفر الخندق حول المدينة المنورة في غزوة الأحزاب •

ولا نفسى ما أوجده الاسلام من حوافز أخرى للعمل والاعمار في
الأرض •• فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من أحيا أرضا ميتة
فهي له » •• ليدفع بالمسلمين الى العمل ويشجعهم على تعمير الأرض
سواء بالزراعة أو البناء فيخلقوا بذلك فرص العمل لأنفسهم ويعمروا
الصحراء المنتشرة حولهم ويصونوا أنفسهم من سوءات البطالة ومذلة
الحاجة •

وخلاصة القول في هذا الباب :

- ١ - أن الأصل في الاسلام ألا بطالة للرجل السوى •
- ٢ - تحريم الكفر لتخرج أموال المسلمين ليأدين النشاط الاقتصادي
المختلفة فتخلق فرص العمل للعباد •
- ٣ - مسؤولية الدولة عن ايجاد العمل للمتعطلين •
- ٤ - التشجيع على الاحتراف •
- ٥ - حفز الناس على اعمار الأرض الميتة بتملكهم اياها اذا أحياها •
- ٦ - مسؤولية بيت المال عن المتعطل اذا عجز عن ايجاد عمل
لنفسه وهي مسؤولية تمتد في الاسلام الى كفالة الشيخوخة والعجز
والأولاد الضعاف اذا مات غائلهم •

الرابع : اطمئنان الدولة على يسر العامل ورخائه • وقد رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكتف بايجاد العمل للمتعمل بل طلب أن يعرف ما تصير اليه حاله ليطمئن عليه وهذا هو السمو الذي تفرد به الاسلام ولم تحصل اليه شريعة من الشرائع أو نظام من الأنظمة • وما نظن العمال ظمعوها في مثل هذا •• ولكنه الاسلام دين الله ونعمته الجامعة لكل خير وسعادة •

الخامس : وهذا المبدأ الخامس أشار اليه الامام أبو حامد الغزالي في كتابه « احياء علوم الدين » اذ ندب ولى الأمر بعد كل هذا لأن يزود العامل بألة العمل • فللنجار آلة النجارين وللحداد آلة الحدادين وهكذا •• لأن الرسول صلى الله عليه وسلم جهز الرجل بألة العمل اذ أحضر القدوم ووضع لها اليد ودفعها اليه •• ولا يوجد في العالم شريعة نصت على مثل هذا(١) •

والمفروض أن يتم تجهيز العامل الفقير بألة العمل من أموال الزكاة حتى نضمن تحويله تدريجيا الى طاقة منتجة وزيادة طاقاته ودخله حتى يخرج من نطاق المتعطلين الى طاقة تصيف الى دخل الأمة •

والنبي صلى الله عليه وسلم حين يقول مشيدا بالعمل اليدوى : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وان نبي الله داوود كان يأكل من عمل يده » ••

أو يقول : « ان الله يحب العبد المحترف » ••

فهو عليه الصلاة والسلام يرشدنا الى دواء ناجع للبطالة • ولعلنا في مصر اليوم نعانى من الكثرة الكبيرة من الشباب الذى يأنف من العمل اليدوى ويؤثر الوظيفة الادارية أو الكتابية على العمل الفنى مما أثر على أفراد الشعب لا سيما بعد أن هاجر كثير من عمالنا الفنيين الى خارج البلاد •

مما يدعونا لأن نهيب بالمسؤولين لادخال أنواع التعليم الفنى أو بعض أنواع الحرف اليدوية في برامج التعليم الثانوى بما يسمح للطلبة بالالماس بشيء من الصناعات أو المهارة في أى عمل من الأعمال اليدوية

(١) الاسلام لاشيوعية ولا رأسمالية للبهى الخولى ص ٧٩

العمل في العالم الاسلامى

منذ تأسيس الاتحاد الدولى لنقابات العمال العرب عام ١٩٥٦ على أساس عدم الانحياز وهو يعانى من التناقضات العنيفة .. فهناك :

١ - تيار عمالى يرغب فى الانضمام الى الاتحاد العالمى لنقابات العمال الحر الذى تأسس فى لندن عام ١٩٤٩ وتشارك اسرائيل فى عضويته ويمثل التيار الليبرالى 'الرأسمالى فى صفوف العمال .

٢ - وتيار ينخرط فى عضوية الاتحاد العالمى لنقابات العمال الذى تأسس فى باريس عام ١٩٤٥ ويمثل التيار الشيوعى فى صفوف الحركة العمالية .

٣ - وتيار يتمسك بالحياد الايجابى .

» وقد لمست فى كثير من الاجتماعات العمالية العربية بكل أسف غلبة الفكر الشيوعى الماركسى على القيادات العمالية العربية وهذا يمثل خطورة بالغة على العمال المسلمين والعرب منهم بوجه خاص .

وهل يخفى أن الأيديولوجية المسيطرة على الاتحادات العمالية الدولية واحدة - سواء رأسمالية أو شيوعية - وبصمات اليهودية التلمودية واضحة الأثر فى مفاهيم الصراع والانشطارية وتفسير الأحداث . وسير الأمم فى هذه التبعية .

فالرأسمالية والماركسية كلاهما من منبع واحد هو امبراطورية الربا التى أقامتها الصهيونية العالمية .. وما الطيقة العاملة إلا أداة للتنفيذ .

ان سيطرة المفاهيم المادية على واقع الحركة العمالية الدولية هو أحد جوانب الخطر على الحركة العمالية فى بلادنا ولا بد أن نبدأ خطوة التحرر وكسر القيود والتماس الأصالة والعودة الى منابعنا حتى نعيد تنظيم مجتمعاتنا الغربية وفق عقيدة الاسلام «(١) ، لا سيما

(١) من بحث لأحمد عزت منى فى عدد سبتمبر ١٩٧٧ من مجلة الدعوة

القاهرة .

وقد أثبتت التجربة العملية والتطبيق في كلا النظامين — الرأسمالي وانسيوعى — الفشل المطبق والثفاء الغالب على مجتمعاتهما حتى أن اللورد كينز — طبيب الرأسمالية في القرن العشرين — يقرر في كتابه « النظرية العامة للعمالة والفائدة والفقود » :

« أن أهم الأخطاء البارزة في اقتصادنا المعاصر اثنان هما :
أولا : الفشل في تحقيق العمالة الكاملة •

ثانيا : التوزيع التحكمى العاشم لكل من الثروة والدخل على نحو لا يحقق العدالة ولقد شهدت إنجلترا من أواخر القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٣٥ تقديما هائلا في نظم الضرائب من حيث عدالة التوزيع في أعبائها على كل من الدخل والثروة •• وقد استحدثت من الضرائب على الإيرادات والتركات ما كان جديرا به أن يقرب بعض الناس من بعض •• ولكن هذا لم يحدث بالقدر الكافى ••

ثم قال كينز : « بأن بعض أصحاب الرأى ينادون بمزيد من الضرائب لعل في ذلك حلا للمشكلة •• ولكن يرد على ذلك بأن فداحة الضرائب تشجع على التجرب منها ومن ثم لا يعتبر هذا الحل فعالا بل لا يعتبر مأمون العواقب من الفواحى الاقتصادية الخلقية ويتعين البحث عن غيره » (١) ••

وبعد نصف قرن من صيحات كينز واخوانه من الاقتصاسيين الرأسماليين لا يزال العامل في العالم الرأسمالى يلهث وراء المال ليحقق مستوى الرفاهية المزعومة التى تبشره بها وسائل الاعلام في بلاده أينما توجه حتى أصبح في عبودية رهيبه لكسب عيشه المرتجى لا تقارن بها عبودية عصور الرق والاقطاع •

وبينما الماركسية التى تتسمى باسم الاشتراكية العلمية وتصف الاسلام كدين بأنه مخدر للشعوب في الوقت الذى يأمر فيه المولى عز وجل الرسول الكريم بأن يعلن في صراحة قوله :

« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى حلك ، ان أتبع الا ما يوحى الى ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » (٢) •

(١) الاسلام دين الاشتراكية من بحث الدكتور عيسى عبده ص ١٥٩ ••

(٢) الانعام : ٥٠

كما يقول أن تتحمل رومانيا طويلا وتقف بعيدا عن الاصلاحات التي
تجرى الآن في دول شرق أوروبا •

وليس المجال أن تعلن المشروعات القيادية للمصانع التي لها شبه
استقلال ، وليس كذلك هو مجال المدح والثناء للتجارب الاقتصادية في
الدول الاشتراكية •• انما هو مجال الكلمات القاسية التي تهز الرسميين
في الحزب من سباتهم ، ويعلن : « ان رومانيا لم تنزل بلدا متخلفا » •
ويذكر في هذا الصدد أن صنوف الآلات التي صدرتها رومانيا في سنة
١٩٦٤ كان يساوي الطن منها ٤٢٠ جنيها •

بالقياس الى ما يساويه في بلغاريا من خمسمائة جنيه •
وفي فرنسا من ٩٦٨ جنيها •
وفي سويسرا من ١٧٢٤ جنيها •

وأن الفلاحين الذين يكونون نسبة تمثل أكثر من نصف السكان
العاملين يعملون ثلث الوقت المخصص للعمل فقط ، ويقول : ان التخلف
كان السبب في ارتفاع أسعار الانتاج ارتفاعا ظاهرا الى ما يعادل ضعف
البلاد المتقدمة اذا نظرنا الى الاقتصاد ككل •

وكان السبب كذلك في أن انتاج العامل في رومانيا أقل بمقدار النصف
أو الثلثين من انتاج العامل في ايطاليا وفرنسا وألمانيا الغربية •
ان الأيام عديدة تلك التي يطمنن فيها العامل الى الاحتفاظ بوظيفته •••
ومع ذلك لا يسهم في الانتاج الاقتصادي الا قليلا ، •• هل يمكننا
أن نحول المصانع الى مؤسسات خيرية ؟

ان ألفا وثلاثمائة وسبعين سلعة من الانتاج أسفرت عن خسارة
تقرب من مائتين وأربعين مليونا من الجنيهات. الاسترلينية (١) في عام
١٩٦٦ ••

ويعلق الدكتور محمد البهي على ذلك فيقول :

« ان السلبية التي ترى في مجال العمل الذي تؤجر عليه الدولة

(١) تهاونت الفكر المادي التاريخي للدكتور محمد البهي ص ٥٠

فينفى كل أسباب الخداع فى الدعوة الى الاسلام من الوعود :-
يوثرة المال أو تأمين المستقبل عن طريق العلم بما سيأتى به الغد
القريب أو البعيد ومن ادعاء التميز عن مستوى الانسان لشخصه مما
يحقق له التبعية فضلا عن القداسة بل ويأمر بالنظر والتفكر •

هذه الماركسية تعد فى خداع سافر بعد أفضل لمجتمعها ، والغد
لا يأتى الا بزيادة الفقر والحرمان بحيث أصبح المجتمع الماركسى
مجتمع المساكين الذين لا يستطيعون بحال ما أن يغطوا احتياجاتهم الى
الخدمات بعد عبز أجورهم عن أن تفى بها بعد أن تملك الدولة وسائل
الانتاج واعتبرت العمل سلعة تخضع لقانون العرض والطلب حيث يوجد
العرض منها أوفر دائما لا سيما العرض الاجبارى عندما تمنع الدولة
انتقال العمل وتحبسه داخل الحدود •

وانى أنقل هنا اعترافا خطيرا عن مدى فشل التطبيق الاشتراكى
فى العمل :

« لقد تحدث سكرتير الحزب الشيوعى الرومانى بمناسبة ما يسمى
بالهجوم لمدة أربعة عشر يوما على نظام الاقتصاد فى رومانيا وعدم
كفايته ، كما نقلت حديثه مجلة الأكونومست البريطانىة فى عددها الصادر
فى ٢١ يناير سنة ١٩٦٧ ص ٢٢١ تحت عنوان « التفوق فى الاقتصاد
الاشتراكى » :

لا يمكننا أن نتحدث عن تفوق الاشتراكية على الرأسمالية طالما
أن بعض الدول الرأسمالية المتقدمة تنتج أرخص أنواع السلع وأجودها •
إننا عندئذ غير قادرين على أن نبرهن على هذا التفوق •

ان ضعف نظام الاقتصاد فى رومانيا يخفى وراء النسب النظرية
والافتراضية فى التخطيط لزيادة النمو. (الاحصاءات التخطيطية) •
وقد بدأ الرومانيون يدركون الآن أن هذا الضعف :

(أ) كما هو فى النوع وفى نفقات الانتاج •

(ب) هو أيضا فى كميته •

وقد أبدى سكرتير عام الحزب الشيوعى فى رومانيا (فى اجتماع
٢٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦ للجنة المركزية) عدة ملاحظات لا يمكن معها

ظاهرة لا يد من وقوعها فيما تملكه الدولة من مصادر الثروة القومية وهذه السلبية هي التي تشاهد في : قلة الانتاج ، وفي عدم جودته ، وفي كثرة نفقاته ، وفي عدم قدرته بالتالى على المنافسة في سوق عالمية .

ان هذه السلبية ترجع الى المساواة في الأجور بينما هناك (الاختلاف) في الطاقات على العمل لدى الأفراد .

فصاحب الطاقة الدنيا على العمل ان رضى بالأجر المساوى لرفيقه في العمل ، فان ذلك العامل صاحب الطاقة انقوية معه الا يرضى بهذا الأجر ، ثم كذلك لا يرضى بالحافز المادى ان منح اياه لأن طاقته على الانتاج تهيء له في المباشرة الحرة أكثر من أجره وجزائه الاضافى وفي الوقت نفسه تشعره بقيمته كإنسان يتميز بطاقته وخالفته في العمل وهذا أهم لديه من الجانب المادى .

وهنا يكون معيار العدالة الاجتماعية الذى تقيس به الدولة مستويات الأفراد معيارا غير عادل وغير مرض بالنسبة لبعض الأفراد على الأقل . بل ربما يعتقد ذلك البعض أنه ينطوى على الغبن والظلم .

ان نظام الماركسية اللينينية في الحكم — طبقا لفلسفتها — يتجاوز الأفراد والفروق الفردية بينها الى (الجماعية) في العمل ، فهو يحشد للعمل كتلا بشرية وقلما يعير ما بين أفرادها من فروق اهتماما خاصا ، ويسوى بينها في الأجر طالما يكون محيط العمل واحدا بغض النظر عن الخصائص الفردية التى تبرز في العمل وتدخل في قيمته ، ان كما أو خيفا « (١) .

والظلم الذى يشعر به بعض الأفراد من أجل عدم تقديرهم في العمل يصير الى حقد في النفوس على النظام نفسه ، ثم يتبلور في الاملان والتراخى في العمل وقد يتحول الى انتقام التخريب فيما تملكه الدولة .

وأقرب مثال على ذلك ما نشاهده اليوم من استغاثة روسيا بأمريكا لتغيثها بالقمح بعد أن كانت روسيا من أكبر دول العالم المصدرة للقمح . ان رأسمالية الدولة التى يقوم عليها الحزب الشيوعى والتسلط الماركسى تقصد الى بقاء (الحرمان) و (الشقاء) للطبقة العاملة —

(١) المرجع السابق ص ٥٢

كخطة مستودنة — كى تحول دور تطلعات لبعضهم فى المنافسة على الحكم أو فى مباشرة الانقلاب على السلطة القائمة ، أن تحسن مستوى العامل وارتفع الى احساسه بالرغبة فى الاستمتاع بالحياة بعد ملء معدته •

ان العامل تحت التسلط الماركسى اللينينى لابد أن يلهث فى سبيل لقمة العيش فقط ولا بد أن تكون حياته كلها ونشاطه فيها وتفكيره فى مستقبله — ان كان يدرك له مستقبلا — لالتقاط هذه اللقمة من العيش التى لا يجدها الا من يد الدولة أو الخبز بمعنى آخر •• انها بعبارة أخرى استعباد لا مثيل له لخلق الله وتسخيرهم فى مقابل أدنى مستويات الحياة •

والنتيجة الطبيعية لذلك هى نقص الانتاج لأن العمل فى ظل رأسمالية الدولة وبعد الغناء الملكية الفردية يصبح (روتينيا) وبدون دافع من النفس فتتفشى ظاهرة التواكل •

ومهما كان وقع الاكراه والتخويف نحو العمل أو الترغيب فيه فسيظل هذا العمل فى كفه أقل وفى نوعه غير جيد أو غير متقن وعندئذ لا يكون فائض انتاج للتصدير وان وجد فلا يستطيع المنافسة فى الأسواق العالمية لانخفاض جودته ويفرضه على السوق المحلية عندئذ احتكار الدولة من جهة والحاجة الماسة اليه لدى المستهلكين من جهة أخرى •
والنتيجة لذلك سيظل حتما :

- ١ — النقص فى الانتاج •
- ٢ — والعجز فى ميزان المدفوعات •
- ٣ — وقلة الأجور •
- ٤ — وارتفاع الأسعار وبالتالى ضعف القوة الشرائية لدى العامل المستهلك ••

وهذه النتيجة بما لها من الجوانب الأربعة تؤدى بدورها الى :

- (أ) بقاء مستوى المعيشة منخفضا لدى العمال •
- (ب) وعدم وجود تطلعات امى حياة أفضل رغم ما تبذله الماركسية اللينينية من الحديث عن الغد الأفضل •
- (ج) واستكانة أفراد المجتمع وبقائهم فى حظيرة التواكل على الدولة ••

والحزب هو الهدف الأخير لهذا التسلط الماركسي اللينيني ••
وبمرور السنوات على هذا التسلط ربما يتحول التواكل على الدولة والحزب
الى وثنية والى عبادة فليست العبادة الا خضوعا واستسلاما •
ولكن هنا خضوع اليأس واستسلام الذليل وليس خضوع المؤمن
القوى لله تعالى» (١) •

ولقد قامت الماركسية على أساس محاربة التفرقة الجسيمة بين
الناس التى أوجدتها الثورة الصناعية فى أوروبا بتضخيم رؤوس الأموال
حتى أصبحت المهوة التى تفصل بين أصحاب رؤوس الأموال والعمال
سحيقة رهيبة وقد اتسم مسلك مجموعة الرأسماليين بالأناية ومحاولة
استغلال الطبقة العاملة •

لكن الماركسية عندما تقترح علاج هذه الفجوة - فيما تدعو اليه
من تحقيق العدالة الاجتماعية عن طريق إلغاء الملكية الفردية - تسلك
كذلك مسلك الأناية والتحيز لفريق من أفراد المجتمع هم العمال دون
فريق آخر وهم أصحاب رؤوس الأموال •

فاذا كانت الرأسمالية أنانية مفرطة فان الاشتراكية الماركسية
أنانية أيضا ولا تقل تطرفا عن الرأسمالية وكلا النظامين أوجد الصراعات
بين أفراد المجتمع وأثار الأحقاد فى نفوس الناس وأدى الى ثورات
دامية ••

بينما الاسلام الذى ينشئ مجتمعه على المحبة والترابط ويقيمه على
مبدأ : « **وتعاونوا على البر والتقوى** » (١) يرى أن منفعة المال منفعة
عامة لأفراد الأمة المسلمة ومن يستظل بربابيتها ••

واذا كانت ملكية المال ملكية خاصة فهو مع ذلك فى يد صاحبه
بوصفه مستخلفا عليه من الله أو وكيفا عن صاحب المال الأصلى • ومعنى
ذلك أن الاسلام لا يمنع الملكية الخاصة للمال ولا يحول دون المباينة
الفردية بل ربما كان يطلبها أولا ولكن يجب على من يملك المال ويباشر
استثماره أن يراعى أن للآخرين من أفراد المجتمع حقا فيه يتعين عليه
أداؤه •• : « **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ،
فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير** » (٢) •

(١) ارجع السابق ص ٨٢ ، ٨٣ (٢) المائدة : ٢

(٣) الحديد : ٧

والمسلم ينفق عن طواعية واحتيار لأنه يؤمن بأن الحياة الدنيا متاع الممرور وأن بعدها حسابا من الله . . وهو عبد الله يعمل بأوامره ويبتعد عن نواهيه ويطمع في عفوه وفي ثوابه والحياة الأبدية في نعيم الله التي هي خير من كل ما يجمع في الحياة الدنيا .

« وبالإيمان بالله . . وباليوم الآخر . . لا تقوم مشكلة اجتماعية كتلك التي قامت في المجتمع العربي الصناعي بين أصحاب رؤوس الأموال والعمال في مصانعهم وبالتالي لا يحتاج الأمر الى حل كمثل الحل الذي تفرضه الماركسية اللينينية .

ان الأثرياء من المؤمنين بالله لا يتحول ثراؤهم مهما عظم - يوما ما - الى (رأسمالية) لأن الرأسمالية ليست هي ملكية المال الوفير ولكنها الإساءة الى الغير بسبب ملكية المال قتل أو كثر .

(فالربا) هو رأسمالية وان قتل ماله .

وثروة الصحابي عبد الرحمن بن عوف وكذا ثروة الخليفة عثمان ابن عفان رضى الله عنهما على ضخامتها ليست رأسمالية ؛ لأنهم لم يسيئوا استخدامها ولم ينتج بسبب ضخامتها ضرر لأحد . بل على العكس . . كانت منفعتها عائدة على المسلمين جميعا . وأيضا فان المؤمنين مطالبون في أموالهم بالانفاق منها على غيرهم من أفراد الأمة انفاقا لا يقابله الا وجه الله ، ولا ينفقون منها على أنفسهم الا بقدر حاجتهم الى الانفاق :

« . . ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ، كذلك يبين الله لكم الآيات

لعلمكم تتفكرون » (١) .

والعفو هو الفضل أو مازاد عن الحاجة وانفاق هذا الفضل في الإسلام يكون بطيب نفس وباختيار صاحب المال لأن الله ضامن له الاخلاف علاوة على الأجر : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » (٢) .

ويقول المفكر الإسلامي الكبير مالك بن نبي في كتابه « المسلم في عالم الاقتصاد » :

(١) المرجع السابق ص ٥٩ - والآية من سورة البقرة : ٢١٩

(٢) سبأ : ٣٩

« اننا عندما نحدد طبيعة الحاجة التي يلبيها الانتاج نحدد طبيعة التوزيع وحجم شبكته • والحاجة من الناحية الاقتصادية نوعان : الحاجة التي يعطيها مال ، والحاجة التي تغطيها ارادة حضارية ، مثل الارادة التي فرضت الزكاة للفقير والمسكين وابن السبيل الذين ليس لهم مال يغطون به حاجاتهم اليومية •

ويتقرر على أساس تلبية الحاجة كل أسلوب الاقتصاد ، اما طبقا لطبيعة المال الذي يقتضى نظما خاصة بتوزيع محدود يحده الامكان المالى ، أو طبقا لارادة حضارية تفرض شبكة توزيع شاملة تشمل كل السكان منذ اللحظة الأولى •

فاذا تقرر هذا النوع الأخير لتلبية الحاجة دون اخضاعها لشرط الامكان المالى ، فنستطيع مبدئيا رسم شروط الديناميكا الاقتصادية في صورة مسلمتين :

١ - لقمة العيش حق لكل قم •

٢ - العمل واجب على كل ساعد •

فالمسلمة الأولى يفرضها الاختيار لمبدأ معين يلتزمه المجتمع ويسجله في دستوره كأساس لعقده الاجتماعى» (١) •

أما المسلمة الثانية فليست اختيارا بل هي ضرورة تفرضها المسلمة الأولى كشرط لاستمرار التفاعل بين الانتاج والاستهلاك •
ولقمة العيش لكل فم ليست مجرد غاية أخلاقية أو شعار يرفعه الاسلام - كما تفعل النظم الاشتراكية - « بل نقطة انطلاق فنية وأخلاقية معا يقرها ضمنا الاسلام في مبدأ الزكاة وتفرضها اعتبارات اقتصادية استثنائية ترمى الى خلق جو اجتماعى تنمو وتتحرك فيه كل الطاقات في عمل مشترك من شأنه أن يغبر الأوضاع النفسية في الفرد وملامح الحياة حوله •

بحيث يكون العمل المشترك أولا وقبل كل شىء المدرسة التي تكون المسلم الجديد الذى يستطيع مواجهة كل الظروف الاستثنائية مثل التخلف لأن مدرسة العمل المشترك تعلمه أن الارادة اذا حركت الانسان تجعله

(١) المسلم في عالم الاقتصاد - مالك بن نبي ص ٩٦

يكتشف الامكان • فالوطن أو المجتمع المسلم الذي يتحول الى مصنع سرعان ما يكتشف أن الامكان الذي ينتظره في يد الغير لتغيير مصيره هو في يده منذ الآن •

ان الارادة تكتشف الامكان ••

هذا القانون في المجال الاقتصادي هو في المجال النفسى ما تشير اليه الآية الكريمة : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١) وما نعبر عنه في المجال الاجتماعى بقولنا : ان الارادة الحضارية تصنع الامكان الحضارى •

فالعالم الاسلامى متى تكونت لديه ارادة واضحة للتخلص من التخلف سيجد أولا في المجال النظرى أن اختياره ليس محدودا بالراسمالية ولا بالماركسية وأنه بالتالى يستطيع التعويض للاستثمار المالى المفقود لديه بالاستثمار الاجتماعى الموجود على أساس المسلمتين المعروضتين في هذا الفصل سواء أكان ذلك في نطاق مخطط مرحلى خاص بظروف ما أسميناه الاقلاع أم كان المخطط يعنى أيضا الاستمرار اذا ما رأى المجتمع مصلحته في ذلك •

واذا كان هذا أو ذاك فالمجتمع العصامى الذى يقلع بمجهوده الخاص يدرك أن القصور الذى يفرضه التخلف في المجال الاقتصادى انما هو نتيجة لتصوره الأثيىاء لا لطبيعة الأثيىاء ذاتها وسوف يرى طاقته الذاتية قادرة على تغيير كل الظروف في جو يسوده الاخاء والطمأنينة •

واذا ما كان لنا درس نستخلصه من تجربة الصين فانما هو أن الممارك الاقتصادية عندما تدور رحاها تدور حول قطب القيم الأخلاقية ، وان وسعنا المصطلح قلنا •• حول القيم الثقافية •

والمجتمع الاسلامى أجدر من يحقق لنفسه وللانسانية التجربة التى تعيد الى عالم الاقتصاد أخلاقيات وبتلافي بذلك الانحرافات الاباحية التى تورطت فيها الراسمالية ، كما ينجو من ورطة الماركسية المسادية التى سلبت الانسان ما يميزه عن الآلات والأثيىاء •

وأجدر من يقوم بهذه التجربة الرائدة للبلاد هي مصر والجزائر

والمغرب التي دخلت فعلا المعركة الاقتصادية على نهج معين تستطيع توسيع أفقه بخبرة جديدة وتطعيمه بروح اسلامية تعيد المال الى وظيفته كخادم مطيع للمجتمع لا كسيد له وترفع عن الانسان الأسر الذي قيده به المادة الماركسية التي أقحمته في عالم الاقتصاد كمجرد آلة للانتاج» (١) •

ويستطرد مالك بن نبي ليثبت أن الاسلام يقيم مجتمع انتاج ويطلب المسلم بأن يكون عضوا عاملا في المجتمع يعرف الواجب كما يعرف الحق وعليه أن يقدم الواجب أولا قبل أن يسأل عن الحق •

ويقدم « ابن نبي » الدليل من قصة الرجل الذي أتى الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب « لقمة عيش » كان من حقه أن يأخذها من المجتمع بنص القرآن الكريم من مال الزكاة وكان النبي صلى الله عليه وسلم أدري الناس بتطبيقه كما كان عليه السلام أجود من الريح المرسلة • ولكن أعمال النبي تشريع لأمة فأشار على من حوله من الصحابة رضوان الله عليهم بأن يجهزوا هذا الفقير ليحتطب وأشار على الرجل بأن يحتطب ليأكل من عمل يده •

فاذا حللنا هذه القضية من حيث أبعادها الخلقية نرى كيف يحل الرسول صلى الله عليه وسلم أزمة اجتماعية تعرض عليه في صورة متسول من المساكين فيفضل صلوات الله عليه حلها في نطاق (الواجب) على (الحق) •• أو اذا قدرنا الأبعاد الاقتصادية فاننا نرى النبي عليه السلام يفضل الحل في نطاق (الانتاج) •

كما نراه صلى الله عليه وسلم في موقف آخر يعطى لصحابي ثم يتكرر الطلب فيتكرر العطاء ثلاث مرات ثم يأتي التوجيه في صورة النصيحة الاسلامية : « ان اليد العليا خير من اليد السفلى » •• اليد التي تعطى خير من اليد التي تأخذ •• هذا هو التوجيه فان شئنا فسرناه خلقيا أو اقتصاديا •

هذا التوجيه الى الانتاج يحمي المجتمع الاسلامي من أن يكون مجتمع استهلاك لأنه اذا رجحت كفة الاستهلاك في مجتمع فهو مجتمع ينفهار •

(١) المسلم في عالم الاقتصاد لمالك بن نبي ص ١٠٠، ١٠٦

« وتحويل التركيز من (الحق) الى (الواجب) ليس بالأمر الذي يأتي عفويا أو صدفة لأنه تحويل لعادات وطبائع منسجمة مع ما في الانسان من ميل طبيعي الى منطق السهولة ، مدعما من ديماجوجية القرن العشرين التي نصبت من (الأنا) وثنا جديدا يعبد الفرد في المجال السياسي باسم الحرية ، وفي المجال الاقتصادي باسم الحقوق . وحتى في المجال الرياضي يعبد (الأنا) المجد في ملاعب الرياضة فتحويل التركيز الموروث ليس اذن بالأمر السهل بل لا يتأتى الا بصراع مع كل التيارات التي تنمي الأنانية بشكلها ، « الأنا » و « نحن » ..

وربما تقوم في وجه ثورة ثقافية — من أجل تعديل التركيز في صالح الواجبات — ثورة مضادة لتدعيم البناء المنحرف .

فهذا ما حدث بالضبط في الصين عندما قامت فيها محاولة لتخفيف ضغط الحقوق على الانتاج فسرعان ما قامت في وجهها مطالبة بمزيد من الحقوق ، في حصة الأرز مثلا ، وفي الأجور ، وغالب الظن أن هذه المشاغبة كانت موجهة من الخارج من طرف جهات تريد تعويق حركة التنمية فاستعملت ضد العمال القائمين بتنفيذ خطة (الوثبة الى الأمام) ما في نفوسهم من ميل طبيعي الى السهولة .

انه لمن أشد المكر أن يحطم الانسان أو يعطل نفسه بيده دون أن يشعر لأن الماكر استطاع أن يخدعه بلغة الحقوق والحريات « (١) » . ونفس الشيء الذي يشير اليه مالك بن نبي هو ما حدث في مصر عندما شرعت في اصلاح مسارها الاقتصادي فكانت عمليات التخريب الرهيبة في يناير سنة ١٩٧٧ التي قامت بها عناصر مدسوسة في صفوف العمال لتعمل ضد مصالح العمال وهو ما ياباه الاسلام الذي يرمى انى اقامة مجتمع الاخاء .. مجتمع الانتاج لصالح الجميع بلا ضرر ولا ضرار .

واننا في هذا الباب من الكتاب نتناول موضوع العمل في العالم الاسلامي ككل لأن الله تعالى يقول : « ان هذه أممكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٢) .

(٢) الأنبياء : ٩٢

(١) المرجع السابق ص ١٠٧ ، ١٠٨

• يقول سبحانه وتعالى : « ورحمة ربك خير مما يجمعون » (١) •
 كما يقول عز من قائل : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند
 الله هو خيرا وأعظم أجرا » (٢) •

فاذا كنا أمة واحدة حقا وإذا كنا نؤمن بأن ما عند الله خير وأبقى
 وأعظم أجرا مما نجمعه في هذه الدنيا ..

• وإذا كنا نؤمن حقا بأن « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا »
 كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم وبأن ما يصيب المسلم في أى
 من أقطار الاسلام لابد أن يجد له صدى عند أخيه المسلم ..
 لما كان في العالم الاسلامى اليوم فقير ولا محتاج ..

ان العالم الاسلامى يتمتع بموارد ضخمة للثروة بعضها كان مخبوءا
 في باطن الأرض حتى أذن الله أن يظهر وبعضها كشفنا عنه بفضل التقدم
 العلمى وبعضها نمر عليه كل يوم دون أن نحاول اعماره أو استغلاله ،
 كعشرات الملايين من الأفدنة من الأرض الصالحة للزراعة في السودان
 وسوريا والعراق وغيرها ..

هل يعقل أن تترك أكثر من مائة مليون فدان في السودان من أجود
 الأراضى الزراعية دون أن تزرع ؟ .. وذلك لحاجة مسلمى السودان
 الى بعض المال لتمهيد الأرض وتنظيفها من أعشابها وأشجارها لتصبح
 صالحة للزراعة أو شراء بعض الآلات المرافعة لترفع الماء من الأنهار !

وهل يعقل أن يتسبب نقص السيولة النقدية في السودان في أن
 يعيش السودان في فقر بينما اخوة مسلمون يكتنون الذهب والفضة
 ويا ليتها في أيديهم بل في أيدي أعدائهم يستغلونها ضد الاسلام وفي
 إبادة المسلمين في حروب بالسلاح وفي حملات التبشير الرهيبة التى تحاول
 أن تقطع الاسلام من بلاده ؟ ! ..

ان المال في يد المسلم أمانة لخير الانسانية .. يقول تعالى :
 « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جطكم مستخلفين فيه » (٣) •

(٢) الزمل : ٢٠

(١) الزخرف : ٣٢

(٣) الحديد : ١٠

فذلك الاستخلاف هو النيابة التي جعلها الله لخليفته في الأرض على ما قرره أئمة التفسير •

لكن الكثيرين من المسلمين ممن أفسدت تفكيرهم النظريات الغربية التي سرت سمومها في بلادنا في ظل الاستعمار الغربي العسكري سابقا، والثقافي حاليا •• يحسبون أن هذا القول من قبيل الفروض النظرية لا من أسس القواعد العملية التي تؤسس عليها المعاملات بين الناس في واقع الحياة ••

لقد نسى الكثيرون مهمة الانسان الأصلية وهي عبادة الله تعالى ونسوا تبعاً لذلك أن الله انما خلق المال ليستعين به الانسان على عبادته لا ليكون له غاية •• واذا نسوا الأصل فقد زایلهم ما كان له في الضمير والذهن من وجدان وبواعث واهتمام وتقديرات في الفكر •• وحسبوا أن قد جاءوا الى هذه الأرض سدى أو عبثاً ليأكلوا ويتمتعوا كما تأكل الأنعام •• أو جاءوا — على حسب ما يخدعون به أنفسهم — ليؤدوا للحياة رسالة العمل وبطولة الانتاج والتسابق في جمع المال الذي هو قوة ومجد الدنيا وليبدلوا في سبيل ذلك ما استطاعوا من طاقات بناءة ثم يصبح من حقهم بعد ذلك أن يسرفوا ويتمتعوا ويبلغوا ما يزعمون من مجتمع الرفاهية مجتمع الاستهلاك •• الى آخر ذلك الزيف الذي يحاولون به ستر تفاهة الحياة بعد أن جردوها من عبادة الله التي هي حقيقة معنى الحياة فانقلبوا يموهون بمثل هذه الأقاويل لعلمهم أن يهبوا لحياتهم معنى أو يجعلوا لوجودهم قيمة •• فاذا كان من بين هؤلاء من لا يرى بأساً بالتدين فعبادة الله على هامش ذلك كله •• وعلى الطرف الآخر تقوم ثورات الفقراء الذين تسللت الى صفوفهم مفاهيم الشيوعية ويحلمون بالجنة الموهومة في جحيم الشيوعية ويحسبون أن مصادرة الملكية الفردية هي التي ستحقق لهم العدالة الاجتماعية وينسون أن تحريم الملكية هو حرمان للفرد من حصيلة عمله ولا يمكن أن يكون أمراً عملياً مقبول العدالة صالحاً لحمل أوضاع الناس عليه دون الوضع الذي تملبه فطرة الله في الأشياء وتقرره نصوص الدين بمثل قوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (١) •

أفرادها وتعددت مصالحها أصبح لا يعول فيها على مجهود الفرد مهما كان قويا بل لابد من تعاون الفرد مع غيره لتتكامل الجهود وتتضافر الهمم في بلوغ رفعة الأمة الاسلامية واحلالها المركز اللائق بها بين الأمم كقوة يحسب حسابها وليست كما مهملا ومصدرا للمواد الخام تتحكم فيها الدول الصناعية المتقدمة .

وهذا هو أمر الله لنا :

«وتعاونوا على البر والتقوى» (١) .

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف

وينهون عن المنكر» (٢) .

فهل آن لنا أن نسعى الى ايجاد التكامل الحق بين دول الأمة الاسلامية؟

لطالما سمعنا دول العروبة ودول الاسلام تتنادى الى أنواع من التكامل الاقتصادي أو التكامل الثقافي ويترنم كتابها وأدباؤها بهذه النعمة المحببة الى النفوس دون أن نرى ذلك يخرج الى واقع الحياة العملية مع ما نرى من ضعف الكيانات الصغيرة والاتجاه في عالم اليوم الى التكتلات السياسية والاقتصادية الضخمة ..

لاشك في أن قادتنا ومفكرينا يدركون هذه الحقيقة فما الذي يمنع من الاتجاه الى التنفيذ؟

أهو افتقاد الثقة بين دول الاسلام؟

أهو ضعف في الايمان بالمبدأ؟

أهي مطامع الدنيا واختلاف المصالح المادية؟

وهل نسينا قوله تعالى : « ورحمة ربك خير مما يجمعون » (٣) .

صدقوني لن تعز الأمة الاسلامية الا بالعودة الى كتاب الله وشريعة

الله !

« فإن العزة لله جميعا » (٤) .

« والله العزة لرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » (٥) .

(٢) التوبة : ٧١

(٤) النساء : ١٣٩

(١) المائدة : ٢

(٣) الزخرف : ٣٢

(٥) المنافقون : ٨

ولن يتم التكامل الذى ننشده أو الوحدة التى أمر الله بها المسلمين الا اذا أخذنا بأسبابها التى بينها كتاب الله وأولها العلم وان قول الله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (١) انما يوحى بأمرين هامين :

أولا : ضرورة تطبيق أحدث الأساليب العلمية وفق ظروف العصر الذى نعيشه لكى يسير التقدم بخطى سريعة ولقد أصبح فى عصرنا هذا ما يميز الشعوب المتقدمة من الشعوب المتخلفة هو درجة ما بلغته من العلم الفنى أو (التكنولوجيا) كما يسمونه •

ثانيا : وجوب تزويد العامل المسلم بالقدر المناسب من المعرفة والتدريب بما يؤهله لاتقان عمله •

ان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا عمل أحدكم عملا أحب الله أن يتقنه » •• وان فى ذلك دعوة صريحة قوية للاهتمام بالتعليم بوجه عام والتعليم الفنى بوجه خاص •• وهنا أيضا اشارة الى ما يتعين على البلاد المتخلفة أن تقوم به من أجل الخلاص من تخلفها لأن من أكبر عوامل الضعف فى هذه البلاد هو عدم توافر الأيدي العاملة المدربة على مختلف المستويات •

ان توافر هذه الخبرات الفنية هو الذى سيدفع عجلة التنمية لتدور بأقصى سرعتها أو بالسرعة التى تتناسب مع العصر الذى نعيش فيه •• فلا نترك هذه البحار التى تطل عليها دول المسلمين دون استغلال ونشكو من أزمة فى اللحوم وكأننا لم نسمع فى كتاب الله قوله تعالى : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها » (٢) •

وعلينا أن نمتلك الأساطيل التجارية التى تمخر هذه البحار لتتقل منتجاتنا وتحمل اليها حاجياتنا استجابة لقوله تعالى : « وترى الفلك هوأخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٣) •

ولا نترك هذه الأراضى الواسعة بورا بغير استغلال ونتعرض لحصار القمح ونذل تحت حاجتنا الى حبوب الغذاء ونكون معرضين

(٣) النحل : ١٤

(٢) النحل : ١٤

(١) الزمر : ٩

للتهديد بالجاعة لو حاولنا الاستقلال بارادتنا ورأينا في التصرف
بثرواتنا ..

وفي ختام هذا الباب لا يفوتني أن أذكر الضرورة الملحة للسماح
بانتقال العمل في أرجاء العالم الاسلامي .. وانى ليأخذنى العجب
لرعب الذى يستولى على بعض دول الاسلام من هجرة اخوان مسلمين
لهم ليعملوا في بلادهم ويساعدوا في استغلال ثرواتها وزيادة الدخل
النومى بها .

ألم يسمعوا بالهجرة الى كندا والولايات المتحدة وأستراليا ؟ ألم
يسمعوا بما تقدمه هذه الدول وغيرها من مساعدات ومغريات للمهاجر اليها
حتى يعمل ويفيد ويستفيد ؟

يقول الله تعالى في كتابه الكريم : « ان الذين آمنوا وهاجروا
وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم » (١) .
فالهجرة المحتسبة عند الله ليست فرارا دافعه الخوف وانما هي
ايمان بحق الانسان في حرية العقيدة وحرية العمل وايمان بواجب
الانسان في الحياة .

ولما كانت الأمة الاسلامية أمة واحدة كما أسلفنا وقد استجاب
المهاجرون لدعوة الله فان واجب المهاجر اليهم ألا يضيّقوا باخوانهم
المهاجرين بل يثمّرونهم بأنهم أشقاء لهم واخوة تربطهم رابطة الدين
والعقيدة : « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر
اليهم » (٢) .

والحث على الهجرة نلمسه في روح التشريع الاسلامى الذى يأبى
أن يذل المسلم .. ومن يرضى المذلة والخضوع للطغيان ويقول : « كنا
مستضعفين في الأرض » (٣) يأتيه الجواب المفحم : « ألم تكن أرض
الله واسعة فتهاجروا فيها » (٤) .

ويؤمن المولى عز وجل من هاجر في سبيل الله بقوله : « ومن يهاجر
في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة » (٤) .. يجد الطرق
الكثيرة لاكتساب الحياة ..

(٢) الحشر : ٩

(٤) النساء : ١٠٠

(١) البقرة : ٢١٨

(٣) النساء : ٩٧

وعندما هاجر المسلمون الأوائى الى المدينة المنورة تاركين أموالهم وديارهم وكانت الأرض وزراعتها فى يد الأنصار قال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه. وإن أبى فليمسك أرضه » •

وواضح أن المقصود من هذا الحديث من كان يملك فوق حاجته ومن يعبى عن زراعة جميع ما كان يملك •

وكم فى بلاد المسلمين من بلاد لا تستطيع أن تستغل ثرواتها لنقص الأيدى العاملة لديها فتترك رؤوس أموال ضخمة معطلة بغير استغلال مع أن استغلالها سيعود بالخير عليها أولاً بما يزيد من الدخل القومى، وبما يضاعف من إنتاجها وبما يحقق رسالة الإنسان التى كلفه الله بها. باعمار هذه الأرض واستخراج خيراتها •

• إن حرية العمل فى العالم الإسلامى جزء لا يتجزأ من شريعة الله - التى نعتنقها وهى خير استثمار للقوى البشرية وهى السبيل لتحقيق انعمالة الكاملة فى العالم الإسلامى •

كما أنها السبيل لتجديد روابط الاخاء الحق بين المسلمين فى أنحاء العالم فتتوحد أمتهم وتنمو أوامر المحبة بينهم وتقوى شوكتهم ويحتلوا المكان اللائق بهم تحت الشمس •

* * *

« فلنعلم أن ما بين أيدينا هو الحق الأزلى الذى لا يلبث أن يغدو نقي ضمائرنا قانونا ذا فاعلية وإيجاب إذا المرء عمق له باطنه وكشف ما فيه عن ملكيات الرؤى والاستبصار .. هناك يتحدد فى الذهن والضمير موضع الفرد فيما يحوز من مال الجماعة بأنه وضع النائب أو الوكيل وليس موضع المالك المطلق ولا وضع الحيوان الأعجم أو الآلة الصماء» (١) •

وهنا يدرك المرء معنى « مال الجماعة » فى فقه الاسلام .. انه مجموع أموال الأفراد لأن الجماعة أو الأمة هى مجموع الأفراد ذوى الارادة .. وهنا يدرك المسلم أنه مسئول أمام الله فى تصرفاته فيما بين يديه من أموال وتتضح أمامه مسئولية الأمة المسلمة — الأمة الواحدة — عن كل أفرادها أينما كانوا .. ألم يقل عمر بن الخطاب الخليفة الراشد : « إذا عذرت بغلة بالعراق لسئلت عنها لم لم (٢) أسو لها الطريق » ..

هذا هو قول الخليفة الراشد صاحب الحق فى التشريع للمسلمين .. هو يرى أنه مسئول ليس عن المسلمين فحسب بل عن دوابهم لم لم يمهد المسبل الصالحة حتى لا يصيب هذه الدواب سوء فيكون هو — بوصفه خليفة المسلمين — مسئولا أمام الله ..

وان المال فى يد المسلم مسئولية سيستل عنها يوم الحساب من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟

ومن أمانة الاستخلاف أن يوجه المال لصالح المسلمين لا الى مصارف اللهو والتلف والبوار •

« ان الترف مرض خبيث من أمراض الغنى ويسر العيش وفراغ الحياة من الأعمال والواجبات والاسراف فى المتاع وبه تتحول الرجولة والأثوثة الصحيحتان الى رخاوة وميوعة وأذواق مريضة وطباع منحرفة فتنتعطل قواها وتصير كالأرض البور التى لا نفع فيها بل تكون من أسباب الضرر المحقق •

والاستمتاع بطيبات الحياة وزينتها التى أخرج الله لعباده أمر •

(١) الاشتراكية فى المجتمع الاسلامى للنبيه الخولى ص ١١٦

(٢) الأولى بكسر اللام وفتح الميم والثانية بفتح اللام وتسكين الميم ١٥

طبيعى مباح أو مطلوب لما دام من غير اسراف ولا خيلاء ولا انحدرار
مع طاعة الشهوات والأهواء ••

فإذا أسرف في المتاع وركنت اليه النفس دائما وآثرته على حياة
الخشونة وأداء الواجبات والأعمال النافعة فقد استبحال الى ترف ومرض
وضعف وبوار •• والى ذلك يشير قول القرآن الكريم :

« ولكن متصنهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا » (١) •
فالمتاع الذى ينسى الواجبات نحو الله والوطن يسلم النفوس الى
البوار والضياع ، فهو سوس الحضارات ومدمر قوى الأمم وجالب
خرابها وتبائها • وقد ذكر القرآن أن المترفين هم من أدوات انتقام
الله من الأمم الظالمة التى بطرت معيشتها وخالفت عن أمر ربها فقال :
« واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها
القول فدمرناها تدميرا » (٢) ••

وطبيعة الترف تحمل على الضيق بحياة العمل والكدح حتى تضمر
قوى الانتاج والكفاح والمقاومة وحب المعامرات وتتحول النفوس الى
أدوات مستهلكة غير منتجة ومتبذلة غير عاملة » (٣) ••
لذلك كره الاسلام الترف وجعله قرين الفسق والكفر وحبب الى
أتباعه العمل والكدح لأن العمل سلاح خطير لا يقل خطرا عن سلاح
الحرب بل انه نوع من الجندية والرباط فى سبيل الله وفى سبيل شرف
الوطن وحفظ كيانه وليس الجندي هو حامل السلاح فى الميدان فقط
بل كذلك من يقف وراءه ويحمى ظهره ويصنع له عدته وسلاحه وذخيرته
وطعامه ولباسه ويكفيه رعاية أسرته وأولاده ويشترك فى معركة التعمير
والتشبيد وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول : « من جهز
غازيا فقد غزا » ••

والاسلام اذ يؤكد على قيمة العمل وأهميته الى الحد الذى جعل
عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال
وجئنا بغير عمل فهم أولى بمجده منا يوم القيامة » •• فهو — أى
الاسلام — يجعل الأولوية للعمل الجماعى ذلك أن الأمم وقد تكاثر

(٢) الأسراء : ١٦

(١) الفرقان : ١٨

(٣) المادية الاسلامية وأبعادها لعبد المنعم خلاف ص ١٧١